

كَانَ عَلِيٌّ فَكَانَ الْغَدِيرُ!

2017-09-11 نزار حيدر

على الرغم من كلِّ ما تعرَّضَ لَهُ الامامُ أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من محاولاتٍ مستميتةٍ للتقليلِ من شأنه وإخفاءِ علومه ومكانته وطمسِ مختلفِ الحقائقِ والمناقبِ التي تتعلَّقُ به وعلى مختلفِ الاصعدة! إلا أَنَّهُ يَبْقَى الضَّوُّ الذي تعشُّوْا إِلَيْهِ كلُّ الخلائقِ وعلى مرِّ التَّاريخِ!

يقول ابنُ أبي الحديد المعتزلي [١١٩٠ - ١٢٥٨] في مقدِّمة شرحه لكتاب [نهج البلاغة] الذي جمع فيه الشَّريف الرُّضي [٩٦٩ - ١٠١٥] المُختار من كلام أمير المؤمنين (ع) في الخطبِ والمواعظِ والحكمِ وغيرها، عن الحَرْبِ الشَّرسةِ التي شنَّها الأمويُّون ضدَّ الامامِ:

وما أقولُ في رجلٍ أقرَّ له أعداؤه وخصومه بالفضلِ، ولم يمكنهمُ جحدَ مناقبه، ولا كتمانَ فضائله، فقد علمتَ أَنَّهُ إِستولى بنو أمية على سلطانِ الاسلامِ في شرقِ الأَرْضِ وغربها، واجتهدوا بكلِّ حيلةٍ في إطفاءِ نورهِ، والتَّحريضِ عليه، ووضعِ المعايِبِ والمثالبِ لَهُ، ولعنوهُ على جميعِ المنابرِ، وتوعَّدوا مادحيه، بل حبسوهُم وقتلوهُم، ومنعوا من روايةِ حديثٍ يتضمَّنُ لَهُ فضيلةً، أو يرفعُ له ذكراً، حتَّى حَظروا أَن يُسمَّى أحدٌ باسمه، فما زادهُ ذلكُ إِلا رِفعةً وسُمواً، وكان كالمسكِ كلِّما سُتِرَ انتشرَ عَرفُهُ، وكلِّما كُتِمَ تَضوُّعُ نشره، وكالشَّمسِ لا تُسْتَرُ بالراحِ، وكضوءِ النَّهارِ إِذ حُجِبَتِ عَنْهُ عَيْنٌ واحدةٌ، أدركتهُ عيونٌ كثيرةٌ!.

ومع كلِّ هذا ظلَّ الامامُ هو مصدرُ الإلهامِ الأوَّلِ والوحيدِ لكلِّ الفرقِ والمذاهبِ والمدارسِ، وعلى صعيدِ مُختلفِ العلومِ والمعارفِ ويفخر به حتَّى غير المسلمين.

يضيفُ ابنُ أبي الحديد بهذا الصِّدِّ قائلاً:

وما أقولُ في رجلٍ تُعزى إِلَيْهِ كلُّ فضيلةٍ، وتنتهي إِلَيْهِ كلُّ فرقةٍ، وتتجاذبهُ كلُّ طائفةٍ، فهو رئيسُ الفضائلِ وينبوعها، وأبو عُدْرها، وسابق مضمارها، ومُجلي حَلْبَتها، كلُّ مَنْ بزغَ فيها بعدهُ فمنه أخذ،

وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى. وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم! ومن كلامه (ع) اقتبس، وعنه نقل، وإليه انتهى، ومنه ابتداء! فإن المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن، تلامذته وأصحابه، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه (ع).

وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بآخره إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم وهو علي بن أبي طالب (ع)! وأما الامامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر.

ويضيف: ومن العلوم علم الفقه، وهو (ع) أصله وأساسه، وكل فقيه في الاسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه، فأما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهم، فأخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأما أحمد بن حنبل، فقرأ على الشافعي فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد [الصادق] (ع)، وقرأ جعفر على أبيه (ع) وينتهي الأمر إلى علي (ع).

وأما مالك بن أنس، فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على علي بن أبي طالب، وإن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك، فهؤلاء الفقهاء الأربعة! وأما فقه الشيعة، فرجوعه إليه ظاهر أيضاً فإن فقهاء الصحابة كانوا: عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، وكلاهما أخذ عن علي (ع).

أما ابن عباس فظاهر، وأما عمر فقد عرف كل أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقوله غير مرة [لولا علي لهلك عمر] وقوله [لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن] وقوله [لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر] فقد عرف بهذا الوجه أيضاً إنتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصة قوله (ص) {أفضاكم علي} والقضاء هو الفقه، فهو إذاً أفقهم! وروى

الكلُ أيضاً أَنَّهُ (ص) قال لَهُ (ع) وقد بعثهُ إِلَى اليمَنِ قاضياً {اللَّهُمَّ اهدِ قلبهُ وَثَبِّتْ لِسَانَهُ} قال (ع) {فما شككتُ بعدها في قضاءٍ بينِ إثنينِ}.

ومن العلوم: علم تفسير القرآن، وعنه أخذَ ومنهُ فُرع، وإذا رجعتَ إِلَى كُتُبِ التفسيرِ علمتَ صحّةَ ذلك، لأنَّ أَكثَرَهُ عنهُ وعن عبد الله بن عباس، وقد علمَ النَّاسُ حالَ ابنِ عباسٍ في ملازمته لَهُ، وانقطاعهُ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ تلميذهُ وخريجهُ! وقيل لَهُ: أينَ علمكَ من علمِ ابنِ عمِّك؟ فقال: كِنسبَةِ قطرةٍ من المَطرِ إِلَى البحرِ المُحيطِ.

ومن العلوم: علمُ الطَّريقة والحقيقة، وأحوالِ التَّصوُّف، وقد عرفتَ أَنَّ أربابَ هذا الفنِّ في جميعِ بلادِ الاسلامِ إِلَيْهِ ينتهونَ وعندهُ يقفونَ، وقد صرَّحَ بذلكَ الشَّبلي والجنيد وسري وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم!.

ومن العلوم: علمُ النحو والعربيّة، وقد علمَ النَّاسُ كافّةً أَنَّهُ (ع) هو الذي ابتدعه وأنشأهُ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعهُ وأصولهُ، من جملتها، الكلامُ كُلُّهُ ثلاثة أشياء: إِسْمٌ وفعلٌ وحرفٌ، ومن جملتها: تقسيمُ الكلمةِ إِلَى معرفةٍ ونكرةٍ، وتقسيمِ وجوهِ الإعرابِ إِلَى الرِّفْعِ والنَّصْبِ والجَرِّ والجزمِ، وهذا يكادُ يلحقُ بالمعجزاتِ، لأنَّ القوّةَ البشريّةَ لا تفي بهذا الحصرِ، ولا تنهضُ بهذا الاستنباطِ.

أما عن شخصيّة الامام (ع) وكمالاتها فيقولُ ابنُ أبي الحديد؛ وإن رجعتَ إِلَى الخصائصِ الخُلقيّةِ والفضائلِ النفسانيّةِ والدينيّةِ وجدتهُ ابنَ جَلاها وطلّاعِ ثناياها.

وأما الشَّجاعة: فَإِنَّهُ أنسى النَّاسَ فيها ذكرَ مَنْ كانَ قبلَهُ، ومحا إِسْمَ مَنْ يأتي بعدهُ ومقاماتهُ في الحَرَبِ مشهورةٌ يُضربُ بها الأمثالُ إِلَى يَوْمِ القيامةِ، وهو الشُّجاعُ الذي ما فرَّ قطُّ، ولا ارتاعَ من كتيبةٍ ولا بارزَ أحداً إِلَّا قتلهُ، ولا ضربَ ضربةً قطُّ فاحتاجتِ الأولى إِلَى ثانيةٍ، وفي الحديثِ [كانت ضرباتهُ وترّاً]!

وجُملةُ الأمرِ أَنَّ كلَّ شجاعٍ في الدُّنيا إِلَيْهِ ينتهي، وباسمه يُنادى في مشارقِ الأَرْضِ ومغاربِها.

وأما السخاء والجود: فحالُه فيه ظاهرة، وكان (ع) يصومُ ويطوي ويؤثر بزاده، وفيه أنزل {ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً*} إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً} وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية، فأنزل فيه {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وقال الشعبي وقد ذكره (ع): كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال [لا] لسائل قط.

وأما الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذنب وأصفحهم عن مسيء، وقد ظهر صحة ما قلناه يوم الجملة، حيث ظفر بمروان بن الحكم! وكان أعدى الناس له وأشدهم بغضاً، فصفح عنه.

وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاكم الوغد اللئيم علي بن أبي طالب! وكان علي (ع) يقول {مَا زَالَ الزَّبِيرُ رَجُلًا مَنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى نَشَأَ ابْنَهُ الْمَشُؤُومَ عَبْدُ اللَّهِ} فظفر به يوم الجملة، فأخذه أسيراً، فصفح عنه وقال: {إِذْهَبْ فَاأُرِينِكَ} لم يزدْه على ذلك.

وأما الجهاد في سبيل الله: فمعلوم عند صديقه وعدوه أنه سيد المجاهدين، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له! وقد عرفت أن أعظم غزاة غزاها رسول الله (ص) وأشدّها نكايةً في المشركين بدر الكُبرى، قُتل فيها سبعون من المشركين، قتل علي نصفهم، وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر.

وأما الفصاحة: فهو (ع) إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين! ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة، قال عبد الحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع، ففاضت ثم فاضت! وقال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيدُه الانفاق إلا سعةً وكثرةً، حفظت مائة فصل من مواظ علي بن أبي طالب!

وأما سجاحة الأخلاق وبشر الوجه وطلاقة المحيا والتبسم: فهو المضروب به المثل فيه حتى عابه بذلك أعداؤه، قال عمرو بن العاص لأهل الشام: أنه ذو دعابة شديدة! وقال علي (ع) في ذاك {عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِي دُعَابَةٍ، وَأَنِّي أَمْرٌ تَلْعَابَةٌ: أَعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ

بَاطِلًا، وَنَطَقَ آثِمًا! وَعَمَرُ بْنُ الْعَاصِ إِنَّمَا أَخَذَهَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِقَوْلِهِ لَهُ لَمَّا عَزَمَ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ: اللَّهُ أَبُوكَ لَوْلَا دُعَابَةٌ فِيكَ!.

قَالَ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ وَغَيْرُهُ مِنْ شِيعَتِهِ وَأَصْحَابِهِ: كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا، لَيْنٌ جَانِبٍ وَشِدَّةٌ تَوَاضَعٍ وَسَهُولَةٌ قِيَادٍ، وَكُنَّا نَهَابُهُ مَهَابَةَ الْأَسِيرِ الْمَرْبُوطِ لِلسِّيَافِ الْوَاقِفِ عَلَى رَأْسِهِ.

وَأَمَّا الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا: فَهُوَ سَيِّدُ الزُّهَادِ وَبَدَلُ الْأَبْدَالِ، وَإِلَيْهِ تُشَدُّ الرِّحَالُ وَعِنْدَهُ تُنْفَضُ الْأَحْلَاسُ، مَا شَبِعَ مِنْ طَعَامٍ قَطُّ، وَكَانَ أَحْشَنَ النَّاسِ مَأْكَلًا وَمَلْبَسًا، وَهُوَ الْقَائِلُ {أَفْقَعُ مِنْ نَفْسِي بَأْنُ يُقَالُ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونُ أَسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!}

وَأَمَّا الْعِبَادَةُ: فَكَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ وَأَكْثَرَهُمْ صَلَاةً وَصَوْمًا، وَمِنْهُ تَعَلَّمَ النَّاسُ صَلَاةَ اللَّيْلِ، وَمِلَازِمَةَ الْأُورَادِ وَقِيَامَ النَّافِلَةِ، وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ يَبْلُغُ مِنْ مَحَافِظَتِهِ عَلَى وَرْدِهِ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ نَطْعٌ بَيْنَ الصَّفِينِ لَيْلَةَ الْهَرِيرِ، فَيَصِلِي عَلَيْهِ وَرَدُهُ، وَالسِّهَامُ تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَمُرُّ عَلَى صُمَاخِيهِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يِرْتَاعُ لَذَلِكَ، وَلَا يَقُومُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ وَظِيفَتِهِ! وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ كَانَتْ جِبْهَتُهُ كَثِيفَةً الْبَعِيرِ لَطُولِ سَجُودِهِ.

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ دَعْوَاتِهِ وَمَنَاجَاتِهِ، وَوَقَفْتَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِجْلَالِهِ، وَمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْخُضُوعِ لِهَيْبَتِهِ، وَالْخُشُوعِ لِعِزَّتِهِ وَالِاسْتِخْذَاءِ لَهُ، عَرَفْتَ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَفَهَمْتَ مِنْ أَيِّ قَلْبٍ خَرَجْتَ، وَعَلَى أَيِّ لِسَانٍ جَرْتَ! وَلَقَدْ قِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (ع) وَكَانَ الْغَايَةَ فِي الْعِبَادَةِ: أَيْنَ عِبَادَتُكَ مِنْ عِبَادَةِ جَدِّكَ؟ قَالَ: عِبَادَتِي عِنْدَ عِبَادَةِ جَدِّي كَعِبَادَةِ جَدِّي عِنْدَ عِبَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ (ص)!.

وَأَمَّا قِرَاءَتُهُ الْقُرْآنَ وَاسْتِغَالَهُ بِهِ: فَهُوَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْبَابِ، إِتْفَقَ الْكُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَهُ يَحْفَظُهُ، ثُمَّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَهُ!.

وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى كُتُبِ الْقِرَاءَاتِ وَجَدْتَ أُمَّةَ الْقُرَّاءِ كُلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، كَأَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ وَعَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ وَغَيْرِهِمَا، لِأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ الْقَارِي، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَانَ تَلْمِيذَهُ (ع) وَعَنْهُ أَخَذَ الْقُرْآنَ، فَقَدْ صَارَ هَذَا الْفَنُّ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهِ أَيْضًا، مِثْلَ كَثِيرٍ مِمَّا

سبق.

وأما الرأي والتدبير: فكان من أسدِّ النَّاسِ رأياً، وأصحَّهم تدبيراً، وهو الذي أشار على عُمر بن الخطَّاب لما عزم على أن يتوجَّه بنفسه إلى حربِ الرُّومِ والفُرسِ بما أشاراً، وهو الذي أشار على عُثمان بأمرٍ كان صلاحه فيها، ولو قبلها لم يحدث عليه ما حدث.

وأما السِّياسة: فإنه كان شديد السِّياسة، خشناً في ذاتِ الله.

ثم يُضيف؛ وما أقولُ في رجلٍ تحبه أهلُ الذمَّة على تكذيبهم بالنبوة، وتُعظِّمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل المِلَّة، وتصور ملوك الفرنج والرُّوم صورته في بيعتها وبيوت عبادتها، حاملاً سيفه، مشمراً لحربه، وتصور ملوك التُّرك والديلم صورته على أسياها!.

وما أقولُ في رجلٍ أبوه أبو طالب سيِّد البطحاء وشيخ قُريش ورئيس مكَّة.

وأبو طالب هو الذي كفل رسولَ الله (ص) صغيراً، وحماهُ وحاطهُ كبيراً، ومنعه من مُشركي قريش ولقيَ لأجله عنتاً عظيماً وقاسى بلاءً شديداً، وصبر على نصره والقيام بأمره! وجاء في الخبر أنه لما توفى أبو طالب أوحى إليه (ص) وقيل له: أخرج منها، فقد مات ناصرك.

وما أقولُ في رجلٍ سبق النَّاسَ إلى الهدى وآمن بالله وعبدهُ وكلُّ مَنْ في الأرضِ يعبدُ الحَجَر، ويجحدُ الخالق، لم يسبقه أحدٌ إلى التَّوحيدِ إلا السَّابِقِ إلى كلِّ خَيْرٍ، محمَّدُ رَسولُ الله (ص) ولقد ذهبَ أكثر أهل الحديثِ إلى أنه (ع) أوَّل النَّاسِ إِتِّباعاً لرسولِ الله (ص) وإيماناً به، ولم يُخالف في ذلك إلا الأقلُّون! وقد قال هو (ع) {أنا الصِّديقُ الأكبرُ وأنا الفاروقُ الأوَّلُ، أسلمتُ قبلَ إسلامِ النَّاسِ، وصليتُ قبلَ صلاتهم}.

com.hotmail@nazarhaidar1